النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

من خليل أحمد خليل ـ ليون

***

١ ـ بين التجارب والحدود

حينما يتحدث فيليب سوليز عن تجربة الحدود فانه يربط بارنو بطريقة مختلفة : الا ان انسان المشكلة واحد عند الاثنين . ففي صميم هذه التجربة الكاملة نجد الوجه الاخر للانسان المفقود السائر في اتجاه المغامرة في عالمنا المنتظم ـ الفوضوي هذا ، حيث ارادته رفيقه الوحيد والاخير ، محاولا ان يعيد للكائن قوته ووحدته الشخصية مكرسا لذلك حكمته وطاقته . وكما ان ظهور نيتشه في القرن الماضي كان علامه تحول فكري ، فان الثقافه الغربية عرفت بعده انواعا كثيرة من الثقافات والمفاهيم الادبية والفنية ونخطتها كلا أو أجزاء ، بطرق مختلفة . أما المشكلة الراهنة فتنحصر في الادعاء التالي : هل وصل الانسان الى نهاية تجربته العلمية الممكنة لامكانياته العقلية ؟ بلغة أخرى : هل نضب الانسان ؟ ـ هل وصلت الفلسفة مثلا الى نهايتها بسبب نضوب الفكر البشري كما يعتقد هيدجر ومدلوبونتي ؟ مهما تكن النتيجة الحالية فان الطريق لا تزال ، كما يبدو ، مفتوحة أمام الانسان وما زال عليه واجب البحث الابدي في عالم الزمان والارادة والتفهقر.

وفيليب سوليز ينهم الرواية مثلا ، بالخطأ وباستخدامها له : وهذان العاملان سيؤديان الى موت الرواية . فهو يبحث عن أدب بدائي كميرلوبونتي في فلسفتهُ الاخيرة ، وعن انسان بدائي سابق للاصناف البشرية الموجودة . فالروائي يعيش قبل كل شيء في عالم حي ـ عالم الاحداث والازمات والاضطرابات والحروب ، واتصاله بالبشرية وأشلائها من أوائل الامور الضرورية في عصرنا هذا . فهو لا يستطيع ان ينسى مثلا الحرب في الفيتنام ، ذاك ان حضوره في العالم وارتباطه بحركته وتطوره دعامة رئيسية من دعامات البناء الادبي . ولربما رأى سارتر أنه لا يحق لكاتب حقيقي يعيش في أيامنا هذه ان لا يتكلم عن الفيتنام او عن الحرب . وسوليز لا ينكر التاريخ الذي لا يتحدث عنه ، وانما يحاول ان ينفذ اليه بطريقته الخاصة . وهو ممن يرفضون الاحداث التي تغذي الرواية ـ للرواية ، لانه يرفض طريقة حياة الكتاب لها .

فحين طلب بعض العلماء الفرنسيين ـ البروفسور مونو مثلا ـ اثر نيلهم لجائزة نوبل للبيولوجيا مساعدة خاصة من الحكومة ، اجابتهم هذه الاخيرة : ستمنحون المساعدات اللازمة شريطة ان تضمنوا لنا نجاح تجاربكم ومداها التطبيقي . والواضح ان التجربة العلمية الصميمة لا تخدم الحكومة بهذا المعنى ، لكنها تنفع العلم : فهي حينما تفشل تكون قد دفعت العالم الى مجابهة الصعوبات بدلا من تجاهلها والسكوت عنها ، وحينما تنجح تفسح المجال امام العلم لكي يتقدم ، وكل تقدم علمي يؤثر على تغيير البنى الحياتية ، ولربما غير العلم حياتنا . وهكذا يرى سوليز ان مشكلة الابحاث الادبية الجوهرية مماثلة لمشكلة التجارب العلمية . والرواية هي طريقة المجتمع في الكلام وطريقة الفرد الاجتماعية في الحياة . هكذا نجد الاصناف الروائية مكانها في هذا النظام الثقافي والاجتماعي والتكنيكي حيث تلعب الطليعة دورها الفعال . ان كل شيء منظم ومصنف في فرنسا لدرجة انه يجلب الكآبة ـ أو الامل ـ الالكتروني .

وهناك من يزعم ان الآلة ستبتكر ذات يوم روايات انسانية مشوقة تصل أعمق ما يستطيع أن يتوصل اليه الخيال ـ هذا الخيال سيبلغ ذروة نفاذه .. وسيطلب الناس من الآلة ان تنتج لهم روايات حتى ينسوا الآلة . ولربما صار المثل الاعلى عند الانسان هو الحياة بطريقة روائية . وهذا النوع من التخيل يجعلنا نتساءل : ما هو الحد الاقصى للاسترفاق الانساني المتأرجح بين الحرية والتعويض النفسي ؟ ان الادب الميكانيكي هو انحطاط حقيقي بالنسبة لثورات القرن الاخير الادبية التي سمحت للادب ككل وكخط أن يبرز الى الوجود . ومن الملاحظ ان الروائيين الثوريين في عصرنا يعيشون على النتاج الحاضر من كتابات بروست وجويس وكافكا الذين مثلوا فاصلة تاريخية مهمة في سلسلة التجارب والحدود ـ الحدود التي لا نرغب في رؤيتها . لكن ما هي تلك الحدود ؟ كيف يستطيع تعبير « رواية » مثلا أن يشير اليها ؟ الرواية هي حديث الافراد الذي لا ينقطع ، الحديث اللاواعي والاسطوري . وهذا الحديث قابل للاستنباط بالمعنى الفرويدي لانه يميل الى اظهار لاوعي المتكلم . اذن ليس هناك رواية « حقيقية » أو « واقعية » كمسلمة ، مهما تكن درجات اعتبارنا للحقيقة والواقع ، ومهما يكن الاعتبار سطحيا أو عميقا .

واللغة تصير عاملا ثانويا بالنسبة الينا . فاما أن نقرر ان نعيش حياتنا بأنفسنا مهما كلفنا تخيل ذلك ـ فيحدث انقلاب مثير ، يبعث بفضل طبيعته الفريدة عالم التجربة الادبية . فماذا يمثل الادب ان لم يبلغ ذلك الانقلاب الداخلي ؟ ـ . واما ان نصف الاشياء بلغة غير لغتنا الشخصية ، وأن نتوهم عالما غير عالمنا ـ فتموت بذرة التجربة والحساسية . ويبدو أن مهمة الادب الحديثة هي اكتشاف القراء . وذلك يعني أننا نطرح مشكلة الاتصال الانساني والتبادل الفكري . لذا يحسن بنا ان نذكر ان الكاتب هو نتيجة ما يكتب ـ النتيجة التي لا تكتمل .

نموذجان تجريبيان

فاز جاك بوريل بجائزة غونكور ١٩٦٥ . وهو شاعر وقصاص . كتب « الهيام » التي فازت بالجائزة خلال مدة طويلة على شكل مذكرات وبالمناسبة نشرت له « الآداب الفرنسية » القصيدتين الجديدتين :

أ ـ الطريق

هل أدري لماذا أتردد أيضا
وأرتعش بين حلمين ؟
آه يا راية الحركات التي ترتج
على الافق الثلجي !
باطلة كل خطوة
لا تؤدي الا الى الخارج
فالطريق ثابتة
بين المصباح والموت

ب ـ فقاعة السلام

أليس هي منزل الحب
وكلبي قرب قدمي
يلاعب ظلي
أوه يا فقاعة السلام
التي تولد في برية الاعشاب
الشمس الغريبة تشرف

على التهـــامك أيضـــا
فمن يعري الاموات
في الجـــوارير المظلمـــة ؟

التجربة وازمة البحث

ودعت فرنسا في ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩٦٥ أحد علمائها الكبار : جورج دافيديتش غيرفيتش ، ثاني مؤسسي المدرسة الاجتماعية الفرنسيـــة الحديثة . ويعتبر غيرفيتش ان المجتمع في ثورة متواصلة وان بناه في حالة انتظام وتهدم فعودة الى الانتظام . علم الاجتماع وهو يكلم الحرية. وثالوث عالم الاجتماع الحقيقي هو : التجربة والنسبية والديالكتيك . حاول ان يتخطى كل المفاهيم القديمة في علم الاجتماع فخلق لغة جديدة يعرفها العاملون في هذا الحقل . أهم تهمة وجهت اليه هي ابتعـــاده عن العالم التجريبي وتجنبه لازمات البحث وانكماشه في عالم نظـــري خاص . الا ان غيرفيتش بنظرنا قد طور علم الاجتماع بتعميق المفهـوم الديالكتيكي ـ وان كان سارتر غير مقتنع كثيرا بهذه الديالكتيكية ـ . وفتح الطريق الواسعة أمام البحاثين . وهذا يكفيه . وقد عرف بموقفه المشرف ازاء الشعب العربي المناضل في الجزائر مما عرضه لنقمة منظمة الجيش السرية . له عدة مؤلفات وهو مؤسس ومدير « دفاتر عـــلم الاجتماع » الشهيرة . وفي مقابلة معه عام ١٩٥٩ حول أزمة عـــلم الاجتمـــاع قـــال :

« انني اميز بين اتجاهين كانا في أساس هذه الازمة . الاتجـــاه الاول هو ابحاث علم الاجتماع « الصناعي » والاتجاه الثاني هو الابحاث الاحصائية وسبر الرأي العام او « علم النفس الاجتماعي » . فاذا كان الناس الذين يديرون هذه الابحاث سائرين نحو الانتصـــار فان عـــلم الاجتماع الفرنسي سيندثر . ان الامر خطر جدا ، ذاك ان لدينا عـــددا محدودا من الجامعات . وان الامر أقل خطورة في الولايات المتحـــدة الاميركية التي تملك ١٢٠٠ جامعة . ان سيطرة ميول كهذه تؤدي الى عقيدة أبوية السيطرة والى توضيح الامر التالي : كيف يمكن استخدام البشر ؟ وقد قالوا بأن العمل وحدة اقتصادية ـ وهو ليس كذلك ـ بدلا من اعتباره كوحدة صناعية فقط . ان علم الاجتماع في نطاق الصناعة الذي يرمي ، كما يقولون ، الى تحسين التكنيك والوصول الى أفضـــل شروط للعمل ، انما يتجه في الحقيقة نحو أفضل مردود (وهذا يعني تجاهل العوامل الانسانية والعائلية والتربوية في الانتاج الصنـــاعي) . وأخيرا يبدو انهم تجاهلوا الامور الرئيسية التالية : ان المجتمع الفرنسي مجتمع رأسمالي وان وسائل الانتاج بيد أجهزة خاصة . ان علم الاجتماع الاقتصادي يؤدي الى حرب نفسية ضد وعي الطبقات والنقابات مـــن جهة والى انتروبولوجيا خاطئة ودعية من جهة أخرى ـ مبدئية بكاملها » .

فنـــدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتـــدلة

بادارة : حلمي المباشر

الاتحاد السوفياتي

ميخائيل شولوخوف

الفائز بجائزة نوبل ١٩٦٥

***

قبل سنوات الحرب الخمس ، خرجت على العالم أشهر روايـــات شولوخوف : « الدون الهادىء » و « استصلاح الارض العذراء » .

وشولوخوف واحد من اشهر وأحب الكتاب في الاتحاد السوفياتي، ومؤلفاته تسمع بشهرة واسعة ، سواء في داخل البلاد ، او فيما وراء حدود الاتحاد السوفياتي .

ورواياته منشورة بخمس وخمسين لغة ، وقد ظهر منها اربعمائـــة طبعة ، تبلغ نسخها عددا هائلا يقدر بحوالي عشرين مليونا .

ولد ميخائيل الكسندروفيتش شولوخوف في ٢٤ مايو ١٩٠٥ ، في وادي الدون ، بمزرعة كروجلين ، من أسرة كادحة ، وتعلم في بـــادىء الامر في مدرسة الكنيسة ، ثم من عام ١٩١٨ التحق بالمدرسة الثانوية .

وفي سنوات الحرب الاهلية اقام شولوخوف في الدون ، وخـــدم في فرقة الامداد والتموين ، واشترك في النضال ضد عصابات الجيش الابيض ، وفي عام ١٩٢٠ نظم خلية شيوعية في أحد المراكز .

وبعد انتهاء الحرب الاهلية اشتغل شولوخوف بناء ، وعاملا عاديا، وعدادا ، وأقام بعض الوقت في موسكو .

أما النشاط الادبي للكاتب ، فقد بدأ عام ١٩٢٣ ، وفي عـــام ١٩٢٥ أخرج أول كتبه « أقاصيص الدون » .

وشولوخوف ينتمي الى هذا الجيل من الكتاب السوفييت الذي خلق ثورة أكتوبر والحرب الاهليـــة ، والبناء الاشتراكي ، والحـــزب الشيـــوعي .

ولقد وصف فادييف في احدى خطبه عن صورة المستقبل ـ طريق الحياة لهؤلاء الكتاب أمثال شولوخوف :

« عند انتهاء الحرب الاهلية ، كنا نجتمع من مختلف انحاء وطننا المترامي الاطراف ، ولقد دهشنا من التشابه العام لتاريخ حياتنا ، مع اختلاف حظوظنا الفردية ، وهكذا كان طريق فورمانوف ، مؤلف كتاب « تشاباييف » ، وكذلك كان طريق اكثر الشباب ، ومن الجائز ان يكون أكثرنا موهبة هو شولوخوف .

لقد دخلنا الى الادب موجة اثر موجة ، وكنا كثيرين ، حملنـــا من الحياة تجربتها ، وخصائصها ، وتوحد احساسنا بالعالم الجـــديد ، وحبنـــا لـــه » .

وبعد ظهور أقاصيصه الاولى عاد شولوخوف الى الدون ، الى المركز الاصلي : « وأحببت أن أكتب عن الشعب الذي ولدت في وسطه ، والذي عرفته » ـ هكذا يقول شولوخوف .

وفي عام ١٩٢٦ بدأ شولوخوف يعمل في « الدون الهادىء » وظهر الكتاب الاول من هذه الرواية عام ١٩٢٨ ، والثاني عام ١٩٢٩ ، والثالث عام ١٩٣٣ ، والرابع عام ١٩٤٠ .

وقد تطلب العمل في « الدون الهادىء » من الكاتب معارف عديدة الجوانب ، وجهودا كبيرة ، فلقد قرأ كثيرا ، وعمل في محفوظات موسكو، وروستوف ، وجال في أنحاء الاقليم ، مسجلا روايات الشيوخ ، والاغاني الشعبية . وفصول الرواية كل على حدة ، بدلها شولوخوف عدة مرات.

وقد عاش شولوخوف في السنوات الاولى من عمله في الروايـــة حياة قاسية ، وقد استقبل الاقارب والاصدقاء الانتاج الادبي لشولوخوف أسوأ استقبال ، ونصحوه بالحاح ان يشتغل بأي عمل اخر ، وقد قال هو عن هذه الفترة : « لقد كتبت بصعوبة ، وعاشت بصعوبة ، ولكنها كتبت على أي حـــال » .

و « الدون الهادىء » أول كتاب جعل شولوخوف واحدا من أشهر الكتاب السوفييت ، فالتطورات السريعة لاعادة التنظيم الاشتراكي في

القرى التي استقبلتها الثلاثينيات استرعت انتباه الكاتب .

وفي عام ١٩٣٢ نشر شولوخوف الكتاب الاول من روايته الجديدة : « استصلاح الارض العذراء » ، ومن أجل ان يكتب مؤلفه الجديد متأثرا بحرارة الاحداث كان يقطع الوقت بالعمل في « الدون الهادىء » .

والمساهمة الحية في المصير الادبي لشولوخوف قدمها جوركي وسيرافيموفيتش ، فقد كتب سيرافيموفيتش مقدمة « لاقاصيص الدون » وهو أول من أشاد بالمواهب البارزة عند الكاتب الشاب ، ومعرفته بالحياة والقوة الابداعية الكبيرة ، وجمال التعبير اللغوي الناصع .

كما أعانه جوركي على طبع الكتاب الثالث من « الدون الهادىء » الذي حاول بعض النقاد ان يحطوا من قدره .

وعدى قدر نمو النشاط الادبي لشولوخوف ، كان يتطور في عمله الاجتماعي . ففي عام ١٩٣٧ انتخب ممثلا في المجلس الاعلى للاتحاد السوفييتي ، وفي عام ١٩٣٩ انتخب عضوا عاملا في أكاديمية العلوم .

وفي سني الحرب العالمية الكبرى نال شولوخوف شرف المساهمة في نضال الشعب السوفييتي ضد الفزاة الفاشيست ، وكتب سلسلة من الموضوعات والقصص بعنوان « علم الكراهية » عام ١٩٤٢ ، ففصح فيها بكل قواه القداسة الاكيدة للجيش الهتلري ، ودعا الشعب السوفييتي للنضال بلا هوادة ، والى الفدائية ، وانكار الذات ، والاستشهاد ضد الحشود الفاشستية ، في سبيل الحزب ، واستقلال الوطن .

وفي نفس الوقت أقدم شولوخوف على كتابة رواية عن الحرب العظمى ، بعنوان : « الذين حاربوا في سبيل الوطن » ، وقد كتبت فصول الرواية كل على حدة في عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . والفصول التي نشرت في الصحف عام ١٩٤٩ تصور المعارك البطولية العنيفة التي خاضها الجيش السوفييتي عام ١٩٤٢ في المشارف البعيدة لنهر الفولجا.

الملامح الرئيسية لانتاج شولوخوف

كل حياة شولوخوف ، ونشاطه الادبي مرتبط بالدون ، والكاتب يحب مسقط رأسه حبا حارا ، ومن حياة قوزاق الدون يستمد الموضوعات والصور ، ومادة مؤلفاته الفنية .

وقد نوه بذلك شولوخوف نفسه ، فقال : « ولدت في الدون ، وهناك تعلمت ، وتكونت كانسان وككاتب ، وتربيت كعضو في حزبنا العظيم ، وظهرت كمواطن لوطني القدير ، ومع ذلك فانني أقول بفخر واعتزاز ، انني برزت كمواطن لوطني باقليم الدون » .

انه رائع في وضوحه وقوة ابداعه التي وهو يصور حياة قوزاق الدون ، وتلك من الخصائص الهامة في العمل الابداعي لشولوخوف .

وهذا التحديد لا يعني ان شولوخوف كاتب محلي محض « اقليمي » الموضوع ، بل على العكس ، فانه بمادة الحياة ، واسلوب قوزاق الدون ، استطاع ان يكتشف المغزى العميق للتطور التاريخي الكبير .

وهنا يجب ان نشير الى الخاصية الثانية الهامة لابداعه ، وهي طبع هذه الفترات المرحلية المتحولة من حياة البلاد بالطابع الفني ، حينما كان نضال العالم الاشتراكي الجديد ضد العالم القديم ، والبورجوازية ينطلق بأقصى حدته ، وبالشكل الدرامي الصارم .

فالحرب الاهلية في « الدون الهادىء » ، وتعميم الوسائل التعاونية في « استصلاح الارض العذراء » ، والحرب العالمية الكبرى في « الذين حاربوا في سبيل الوطن » ـ هذه الفترات الثلاث من حياة الشعب يتركز فيها اهتمام الفنان !

ومن هذه المجموعة تبرز ثلاثة معالم لموهبة شولوخوف ، هي : اتساع البطولة ، والميل الى الصور الفنية الاثرية الضخمة ، والميل الى تعميم النتائج الاجتماعية العميقة .

وأبطال روايات شولوخوف أناس كادحون بسطاء ، أفكارهم الحزينة والفرحة ، وطموحهم الى السعادة والعدالة ، ونضالهم من أجل حياة جديدة تسترعي انتباه الفنان على الدوام .

ومن الضروري ان نشير في النهاية الى الخصيصة الجوهرية لطريقة ابداع الكاتب ، وهي عداوته لاي عمل غير مثالي ، فمن الثابت انه يتتبع حقيقة الحياة القاسية ، ويكتشف عملها بجميع تناقضاته ، وجميع تعقيداته ، وجميع جوانبه المتعددة ، وجميع تباياتها ، وما فيها من حدة الصراع الناشبة عن القضايا الصعبة المعقدة لميلاد عالم جديد. وهذه هي القاعدة الفنية المصيرية التي تمسك بها شولوخوف في اصرار كأعظم نموذج للواقعية الاشتراكية .

اقاصيص الدون

الموضوع الرئيسي لهذه الاقاصيص المبكرة لشولوخوف هو صراع الطبقة المناضلة في الدون .

وليست العلاقة بين أفرادها منحصرة في الوطن او المشاعر ، بل ان موقع الناس من الصراع الطبقي العنيف هو الذي يحدد العلاقة بينهم.

وليس من النادر ان يصير الاباء والابناء والاخوة الد الاعداء في سبيل الوطن .

ففي قصة « كولوفيرت » نرى القوزاقي العجوز كرامسكوف ، وولده ـ من المنضمين الى الحمر ـ يقعان في أسر الحرس الابيض ، فيعدمهما الابن الاصغر ميخائيل ـ الضابط الابيض ـ رميا بالرصاص .

وفي قصة « مزرعة البطيخ » نرى الاب ـ رئيس المحكمة العسكرية لفرق الحرس الابيض ، والجلاد الجهنمي ، وابنه فيدور ـ الجندي في الجيش الاحمر ، ونرى البيض يطاردون فيدور الجريح القدم ، ويكشفه الاب في مزرعة البطيخ ، فيتأهب للتنكيل به ، وحينئذ يقتال الابن الاصغر ميتيا أباه من أجل ان يخلص أخاه .

وفي قصة « ثقب الدودة » يبغض ستيبل عضو اتحاد الشبيبة الشيوعية أباه يعقوب أليكسيفيتش المالك بغضا شديدا ، ومن أجل ذلك نرى يعقوب اليكسيفيتش وابنه الاكبر يذبحان ستيبل عضو الاتحاد.

ويوضح شولوخوف ـ وهو يقص عن الحقد الهائل لاعداء الثورة واعمالهم الدموية ـ انه على العكس ، في البيئة القوزاقية الثورية التي كانت مجبرة في صراعها القاسي العنيف على ان تتخلف عن ركب الحياة الجديدة ، قد ظهرت فيها صفات عالية ونبيلة ، كالاستعداد للتضحية ، والشجاعة البطولية ، والانسانية الاصيلة .

ومن الاهمية ان تنبه الى ان شولوخوف رسم في « أقاصيص الدون » صورة لينين التي مثلت « الحارث بالمحراث » ، وأيقظت الشعب للنضال من أجل حياة أفضل .

واذا كان الصراع الطبقي في « أقاصيص الدون » قد أنتج الصور الرئيسية في الحدود الضيقة للاسر القوزاقية ، فانه قد أضاف عملا اخر مختلفا تماما لهذا الموضوع في « الدون الهادىء » وهو الانتاج الرئيسي للكاتب .

الدون الهادىء

و « الدون الهادىء » ينتمي الى مجموعة من أبرز الانتاج الفني المشهور جدا في النثر السوفييتي .

يقول كالينين في حديثه الى الكتاب الشبان في عام ١٩٣٤ :

« .. « الدون الهادىء » أنا أعتبره أروع انتاجنا الفني ، فهو في بعض المواضع مكتوب بقوة خارقة للعادة » .

وماكسيم جوركي يعتبر « الدون الهادىء » من تلك الكتب التي « أعطتني صورة واسعة حقيقية وعبقرية للحرب الاهلية » .

واعتمادا على نجاح الادب السوفييتي في رسم أفضل صورة للحرب الاهلية ، فان شولوخوف فكر في ان ينتج عملا ابداعيا عميقا وأصيلا .

في « الدون الهادىء » يبرز شولوخوف أمامنا كفنان خبير في القصص البطولي قبل كل شيء ، وبافاضة وحرية ، يعرض الفنان صورة تاريخية ضخمة للاحداث الدرامية العاصفة التي يتضمنها « الدون الهادىء » في مدى عشر سنوات بين عام ١٩١٢ و عام ١٩٢٢ .

والعمل في « الدون الهادىء » يبرز في مخططين ، أحدهما

تاريخي ، والاخر شخصي ، ولكن كلا هذين المخططين معطى في وحدة غير منفصلة .

والنموذج البطريركي للشاب ميليخوف ينهار في المخطط الشخصي – في حبه لاكسينيا ، وفي المخطط الاجتماعي – باصدام جرايجور بالتناقضات العنيفة للحقيقة التاريخية الملائمة جدا مع عقدة الرواية .

في المخطط الشخصي – موت أكسينيا ، وفي المخطط التاريخي – هزيمة حركة القوزاق البيض ، والفوز النهائي للحكم السوفييتي في الدون .

في كلا المجلدين سطور موضوعية – للمخططين الشخصي والتاريخي – يظهران فيها متكاملين تماما . والفشل الفاجع للبطل منطقي طبيعي ومنجز .

في الكتب الاول عمل يبدأ في فترة ما قبل الحرب ، وينتهي في السنة السادسة عشرة ، ويتحدث فيه عن الحياة ، وعن ظروف المركز وعن شباب جريجوري ميليخوف ، وعن أحداث الحرب الاستعمارية .

أما الكتاب الثاني فيضم الفترة من اكتوبر عام ١٩١٦ الى ربيع ١٩١٨ ، وأيام فبراير ، واكتوبر العظيم عام ١٩١٧ ، وابتداء الحرب في الدون – هذا ما يحتل مركز الكتاب .

وأما الحدود الزمنية للكتاب الثالث ، فمن ربيع عام ١٩١٨ الى مايو ١٩١٩ ، ويصور فيه النضال العنيف للشعب السوفييتي ضد الحرس الابيض المناوىء للثورة في الجنوب .

وفي النهاية يحتوي الكتاب الرابع على الفترة من ربيع ١٩١٩ الى عام ١٩٢٢ ، ويحكي عن الهزيمة الساحقة لحركات القوزاق البيض ، والنصر النهائي لسيطرة الحكم السوفييتي على الدون .

وعلى هذه الصورة ، فالحرب الاستعمارية ، والثورة ، والحرب الاهلية ، وأمثال هذه الاحداث التاريخية ، لها انعكاساتها الفنية في « الدون الهادىء » .

والاحداث في الرواية تجري في الجبهة القريبة ، من بطرسبرج وموسكو ، الا ان الاماكن الرئيسية للاحداث كانت في مركز القوزاق .

والمصائر التاريخية لقوزاقية الدون – ابان الحرب والثورة – أساسية جدا في محتويات الرواية التاريخية البطولية لشلوخوف .

فقد أعطى شولوخوف مزيدا من الاهمية والمغزى الكبير للمسألة الاجتماعية عن طريق الثورة والاشتراكية لجماهير الشعب الواسعة .

وتحول جماهير الشعب الى الاتجاه الثوري والاشتراكي يتكشف في مصائر القوزاق ، وهذا يبرر المميزات الخاصة لتصوير الصراع الطبقي في « الدون الهادىء » .

وقد امتاز القوزاق بعدد كبير من الخصائص الاشتراكية الفريدة في نوعها ، ففي مجرى السنوات القيصرية الطويلة شاهد القوزاق كيف ان الخدام المخلصين ليسوا بمقدار ما يناضلون ضد العدو الخارجي بل بمقدار نضالهم ضد الشعب الثائر ، وضد الحركات التحررية .

فالقوزاق كانوا موضوعين تحت ظروف خاصة متميزة ، انهم في الغالب لم يعرفوا هذا البؤس والضيق اللذين صبر عليهما الانسان الروسي الكادح ،وقد اشتعلت نار العداوة بينهم وبين الاقلية الوطنية، وغير القوزاق جميعا « الغرباء » ، وقد قوى ذلك من شعور القوزاق بالتفوق الطبقي الذي يجعل من الصعب تغلغل المبادىء الثورية بينهم ، والذي جعل مجموعة من القوزاق في سنوات الحرب الاهلية اداة طيعة في يد الحرس الابيض المناوىء للثورة ، ولكن لما كان في الدون بطبيعته نظام طبقي ، فان نضال القوزاق الكادحين قد اتسع ضد الملاك والمستغلين على ان المرشدين والموجهين في الظروف السالفة قد أضافوا الى الحرب الاهلية في الدون حدة خاصة ، وخشونة قاسية .

وميزة « الدون الهادىء » ان شولوخوف حاول بكل قواه ان يكشف عن الحدة غير العادية ، والعنف الذي لم يسبق له مثيل في بيئة القوزاق ابان المعارك الطبقية .

لم تكن الحرب الاهلية من أجل الحياة ، ولكنها كانت حرب الفناء بين اثنين من المعسكرات الرئيسية ، معسكر الشعب الثائر بزعامة الشيوعية ، والمعسكر المناوىء للثورة ، المعزز من الملاك والبورجوازية والاستقلالية ، وهاتان الصورتان الرئيسيتان المتعادلتان نجد انعكاسهما في « الدون الهادىء » .

فنرى هناك من ممثلي الاتجاه الاول ، المالك ليستنيتسكي ، والمستغلين اخوان كورشونوف ، والتاجر موخوف ، وقواد الحرس الابيض وضباطه الاشرار ، والجلادين والمقتالين ، أعداء الشعب السوفييتي ، المحرومين الشرفاء من ذوي الضمائر ، وخطتهم واضحة جلية ، فهم يريدون ان يفرقوا في الدماء الشعب الثائر ، وان يعيدوا نظام الحكم القيصري العتيق ، وان يمتلكوا الفرصة من جديد ليستفيدوا بجميع خيرات الحياة ، ويستغلوا العمال والفلاحين بلا رحمة .

وقد خاض الشعب الثائر ضدهم حرب الموت بحماسة الشجعان، وعبر عن مصالح الثوار بودتيلكوف ، وبونتشول ، وشتوكمان ، وكوتلياروف ، وميخائيل كوشيفوي ، وبوجودكا .

لكن السمة الفريدة للدون الهادىء تبدو في أنه لا يضع في بؤرة اهتمام الكاتب ممثلي هذين المعسكرين الطبقيين الاساسيين المتعارضين ولكن يضع في هذه البؤرة البطل المعبر عن المزاج النفسي للمترددين المتقلبين بين القوى الاجتماعية جريجوري ميليخوف .

فحياة ميليخوف في سنوات شبابه ، وقصة زواجه من ناتاليا ، وحبه لاكسينيا واشتراكه في حرب الاستعمار ، ثم في الحرب الاهلية ، واخيرا موته الادبي – هذا هو ما يرسم الاساس الموضوعي للرواية .

وجريجوري ميليخوف لم يوضع في المركز من « الدون الهادىء » بمعنى انه منح عناية أكبر من الجميع فحسب ، بل لان كل احداث الرواية تقريبا ، اما صادرة عن ميليخوف ذاته ، واما أنها هكذا بصورة أو بأخرى مرتبطة به .

ماذا اذن يمثل جريجوي ميليخوف نفسه ؟

جريجوري ميليخوف

ميليخوف مرسوم في هذه الرواية بشكل غير مألوف من جوانبه المتعددة .

فسنوات شبابه شواهد على أساس الحياة والظروف المحيطة بمركز القوزاق ، وشولوخوف يصور بصدق نظام الحياة البطريركية للمركز .

ويبرز بوضوح أمام القارىء خصائص الحياة القوزاقية ، كروح الاقدام ، وحب الحرية ، والمفاهيم العليا لشرف المحارب ، وبجانب ذلك القسوة الوحشية ، والظلم ، والحقد الاعمى على الدخيل والاجنبي.

ففي الفصول الافتتاحية للرواية ، التي ينتظمها التمهيد المنقطع النظير « للدون الهادىء » تصوير للمشهد الوحشي البشع للتنكيل بجدة جريجوري التي ارتاب القوزاق في اشتغالها بالسحر .

وملامح الظلم والوحشية يعبر عنها مشهد المعارك الدموية عند الطاحونة بين القوزاق والفلاحين الاوكرانيين الوافدين عليها .

وصورة جريجوري ميليخوف تتشكل تحت تأثير هذه الانطباعات المتناقضة . فمركز القوزاق يربى فيه – منذ السنوات المبكرة – روح الاقدام ، والاستقامة ، والشجاعة ، والى جانب ذلك يوحي اليه بكثير من الاراء التقليدية الخاصة المتداول من جيل الى جيل .

وجريجوري ميليخوف ماهر ، وهو بطبيعته مخلص ، ومن الملامح التي تحدد صفاته ، طموحه المتحمس الى الحقيقة والى العدالة .

وهذا الانسان الصريح الخطير ذو مشاعر مضطربة ومعقدة ، ومع كل هذا فان شولوخوف يلوم جريجوري بشدة وبطريقة سافرة على كل من سلوكه المنهار ، وافلاسه ، وطريقته في الحياة .

ومأساة ميليخوف تنحصر في انه انفصل عن الشعب ، ولم يستطع ان يمتزج بالثورة ، بل وقع بقوة الظروف القهرية في معسكر اعدائها الاشرار ، وكان وقوعه في المأزق الذي وقع فيه ، والفشل الخاص الخانق الذي حاق به – جزاء عادلا للانشقاق على الشعب ، وعلى الثورة الحقيقية العظيمة .

وجريجوري ميليخوف بوضعه الاجتماعي فلاح متوسط الحال ، وهو في نفس الوقت مالك ، وعامل دروب ، ولذا فشعور المالك يفصله عن الثورة ، ويربطه بعالم البورجوازية . وشعور عامل الدروب ، على العكس ، يقربه من البروليتاريا الثائرة ، ويسلحه ضد المستفلين والطفيليين .

وهذه النزعات المتعارضة تقوى وتبتعد بالاراء التقليدية الطبقية الخاطئة ، والمذبذبة بين القطب الطبقي غير المسالم ، وبين المناضلين للمعسكرات المعادية ، والبحث عن « الطريق الثالث » الخيالي الموهوم في الثورة ، الذي ليس مع الحمر ولا مع البيض ـ هو ما يميز خط سير ميليخوف .

وفي الفصول النهائية للرواية يفضح شولوخوف التخريب المزعج لبطله ، جريجوري ميليخوف ، الذي فقد أحب انسان اليه ـ أكسينيا ، ففقدت الحياة في نظرة جميع أفكارها ، وجميع معانيها ، وهو كذلك يعترف من قبل بالمأساة المؤلمة لوضعه ، فيقول : « ارتددت عن البيض ولم ألتصق بالحمر ، وهانذا أطفو هكذا كالسيخ في حفرة الثلج » .

اما الان وقد شيع اكسينيا فانه يدرك ان الجميع اموات : « انه شيع منها بثقة مؤكدة في انهما سيفترقان الى امد قريب ، وبكفيه دكدك على فمة المقبرة بالطين الاصفر الرطب ، وركع طويلا على ركبتيه بالقرب من القبر ، مطأطئا رأسه ، محركا لها في صمت ، وهو الان في غير حاجة الى ان يعجل ، فالجميع كانوا امواتا » .

في صورة جريجوري ميليخوف مكونات عامة كبيرة ومميزة . فذلك المأزق الذي وقع فيه ميليخوف لا يعكس ـ بلا شك ـ خطوات التطور الجارية في جميع القوزاق ، لان صفات جريجوري مكونة من اشياء اخرى لسمانه الاجتماعية ، من حظه المحزن من التعليم ، حظ الانسان غير الواجد طريقه الى الثورة .

فصورة ميليخوف ـ كما يؤكد الكاتب ـ صورة انسان منعزل عن الشعب ، وعن الواقع الثوري ، غير واجد في نفسه القوة الكافية ليختار الطريق السليم ، ولا مفر له من ان يحمل المأساة الخلقية .

وانفصال جريجوري هذا عن الشعب لبناء حياة جديدة ، يعرضه شولوخوف في احلام ميليخوف التي تحمل بوضوح المميزات الرمزية له : « جريجوري يرى في حلمه سهلا واسعا منبسطا ، معرضا لغارات الفرق العسكرية ، ومن مكان ما يندفع اسطول من بعيد ، ولمسافة طويله ، حينئذ تذكر انه عند حزام السرج ، وبفوة وضع رجله في الركاب الايسر ، وزحف السرج تحته ، فوثب عن الحصان وهو غارق في الخجل والخوف ، ليضيق حزام السرج . وفي ذلك الوقت سمع جلبة مفاجئة ، وقعقعة سنابك الخيل تندفع بسرعة ، والفرقة العسكرية تسير الى الهجوم بدونه .. » .

وهكذا يكشف شولوخوف في صورة ميليخوف عن الافلاس المطلق ، وعن خطأ « الطريق الثالث » في الثورة ، ويظهر النحيز ، والموت الفاجع للانسان المنفصل عن الشعب الثائر .

وعبر كل الرواية تمر صورة اكسينيا التي رسمها شولوخوف بمهارة فائقة . ولم يعرف الادب العالمي انتاجا اخر بذلك العمق ، بحيث يطلع على العالم الداخلي للزوجة الفلاحة البسيطة بنت الشعب .

فاكسينيا طبيعة معقدة ، وهي بالرغم من ذلك غنية بالمشاعر القوية العميقة . وحظ اكسينيا كذلك محزن ، طفولة صعبة ، وزواج بانسان لا تحبه لكن حظها المحزن كان في العادة كثيرا على امرأة من الشعب .

وحبها لجريجوري عظيم ، يستغرق كل حياتها . لقد ركزت فيه كل ما كان اكثر اشراقا في حياتها . فهي الرفيق الامين ، والصديق الحميم لجريجوري ، انها لم تشاطره كل متاعب حياته ، ولم تحتمل كل الاهانات ، وكل المرارة الناشئة عن موقفه المراوغ فحسب ، بل اكثر من ذلك صارت ضحية بالمعنى الدقيق لاخطاء ميليخوف المشئومة .

ان اكسينيا تشاطر جريجوري حظه المحزن ، ومع ذلك لم تستطع ان تجد طريقها في الحياة ، ولم يكن حبها لجريجوري قادرا على ان يمنحها السعادة الحقيقية ، وان يجعل حياتها مهمة او ذات مغزى .

فهذا الحب في نهاية النهاية قاد اكسينيا الى الموت .

بهذه المهارة الفنية العظيمة يكتشف شولوخوف العالم الداخلي لابطاله ، والكاتب يستخدم جميع الوسائل الفنية ليضفي عليهم السرور او الالم ، والحب ، والاسى .

ويفتتح القسم السابع في الرواية بمشهد رائع في تعبيره الفني ، فبعد مرض اكسينيا الثقيل المضني تعود اليها القوة والصحة ، وسرعان ما تتلاعب بحياتها الاحداث المحزنة التي تقودها الى الموت . انها الان مفعمة بالسرور ، والاحساس بالسعادة التي لا تعرف لها سببا ، وها هي ذي صورة الربيع كما تحس بها : « بدونه ، وبروعة الجديد ، وبالاغراء قدم لها العالم . وبعينين لامعتين نظرت حولها بقلق ، مسترجعة في ذاكرتها حفيف ثوب الطفولة ، ومتخيلة طريقها الضبابي الطويل ، وقدود اشجار التفاح المترعرعة في الحديقة ، والبستان المبلل بالندى ، والطريق وراءها مفسول من المجرى العميق للسنوات الماضية ، كل شيء يبدو لها جميلا بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وكل شيء يصطبغ بلون كثيف او رقيق كانه شمس الخريف . انها ـ بلامبالاة ـ تستمتع بلذة وهي تعود الى حياتها . ان اكسينيا تشعر برغبة عارمة في ان تلمس بيديها كل شيء ، وان ترى كل شيء . انها ترغب في ان تلمس كرمة العنب الاسود المبللة بالندى ، وان تضغط خدها على غصن التفاح الرمادي الفاتح ، المخملي الملمس ، وتريد ان تسير وسط الانقاض والخرائب ، وان تمشي في الوحل بلا طريق الى ما وراء الوهدة الواسعة ، حيث تخضر القصة الخرافية وتنصب من ضباب الحقل الشتوي البعيدة .. » .

لقد استطاع شولوخوف ان يعرض هنا بفنه الرفيع المتقن مفاتن الربيع ، بنوره الساطع ، وجماله ، ومسراته ، في وحدة عضوية من خلال مزاج اكسينيا .

وفي هذا الفصل السابع يصور الكاتب مشهدا اخر . فاكسينيا تموت ، ويدفنها جريجوري ، وهو يعرف بوضوح مؤلم انها نهايته ، فقد اصابته فاجعة مطبقة . فان في دفن اكسينيا وصفا لصورة فريدة ، ان جنازتها تسير قريبا من المرساة ، في الضوء الساطع لصباح يوم من ايام الصيف .

ومع ان شولوخوف قدم في المقطوعة الاولى من الرواية نفس الصورة الطبيعية ، والاحساس بالسرور ، الا ان الموضوع الان هو الوسيلة لتصوير المنظر الطبيعي للافتتاحية المشئومة لمشاعر جريجوري الحزينة :

« في الضباب الدخاني تثور ريح لافحة ، اقوى من حرارة الشمس ، واجمل ما فيها انها فضضت رأس جريجوري المغطى بالشيب الكثيف ، وانحدرت في فزع وشحوب على وجهه الجامد ، كما لو كان

فندق نيو پالاس
ادارة : فتحي نوفل
وسط راقٍ
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف
جناح خاص للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكورسل بصلاح الدين
ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١
New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 Cairo

مستيقظا لتوه من حلم مزعج ، لقد رفع رأسه ، فرأى فوقه السماء السوداء ، وقرص الشمس القاتم الفاتر المتألق » .

تصوير البلشفيك

الى جانب جريجوري ، واكسينيا ـ البطلين المركزيين للرواية ـ فان في معرض الصور الكثيرة لشخصيات « الدون الهادىء » مكانة هامة ، يحتلها ممثلو الشعب الثائر ـ البلشفيك ـ الذين تصورهم الرواية ، ومن بينهم العمال : الحداد جارانج ، والبراد شتوكمان ، والميكانيكي كوتلياروف ، والعاملة بوجودكا . والرواية تصفهم بالاخلاص الذي لا حد له لقضية الشعب ، والاستعداد للتضحية بانفسهم ، باسم المثل العظيمة للمجتمع ، والقيم الاخلاقية العليا ، فبالشعور بالقوة الكبيرة ،والنظام ، وتمام الحكمة يتميز حب بونتشوك ، وآنا بوجودكا.

واهم خاصية في تصوير هؤلاء الابطال تبدو في ان شولوخوف اهتم بالاشارة الى جلدهم وصبرهم ونضالهم العنيف من اجل التعليم السياسي للجماهير ، ومن اجل التربية الثورية للشعب . والمثالي في هذه الفكرة احاديث جارانج مع جريجوري ، والاكثر مثالية هو العمل الاعلامي للمرشد البلشفيكي شتوكمان ، والشيوعيون المعنيون في الرواية امثال المعبرين عن الاماني المضيئة للشعب ، وامثال القادة المعلمين للجماهير .

ولقد نجح شولوخوف اكبر النجاح في تصوير ميخائيل كوشيفوي، نجاحا يقترب به من قرينه جريجوري ميليخوف القوزاقي الاصيل ، بالرغم من منشئه ، فانه ترعرع هو وجريجوري معا في مزرعة تتارسك ومع ذلك سار كوشيفوي في طريق مختلف تماما. ولقد قارن شولوخوف بين كوشيفوي وميليخوف بطريقة مباشرة، ويقول جريجوري انكوشيفوي ينتمي الى هؤلاء الناس الذين كان واضحا منذ البداية ان « طريقهم يتجه مباشرة الى نهايتهم » وهو يتحدث عن هذا بشعور الحسد البين.

وكوشيفوي مرسوم في صور متعددة الجوانب . فشولوخوف يلفت النظر الى حبه للحياة ، واشواقه الداخلية ، وطاقاته الجياشة ،وحقده الذي لا مثيل له على الاعداء : « اية نظرة الى الاعداء .. الى البياض الناصع تجد عندي فبضة صلبة !! » هكذا يقول .

ومن الطبيعي تماما ان يتحول في نهاية الرواية الى رئيس للمزرعة، وان يتقدم لها كرئيس للسلطة السوفييتية المنتصرة .

واذا كان في تعبير جريجوري ميليخوف قوة مدمرة لانحياز القوزاق للملاك والطبقة الرجعية ، فان في كوشيفوي على العكس تجسيدا للمبادىء الثورية الديمقراطية الصحيحة ، التي سادت في نهاية النهايات بين القوزاق، وشقت طريقها في الاتجاه نحو الحكم السوفييتي، والاتجاه الى الاشتراكية .

هذه المبادىء يعبر عنها قائد قوة القوزاق بودتيلكوف . وفيدور بودتيلكوف واحد من قادة الفكر الشبان المؤيدين للسلطة السوفييتية في الدون . انه كان رئيسا للجنة الحرب الثورية ، ومندوبا حربيا ، وقائدا لجيش الدون السوفييتي . وفي الكتاب الثاني من « الدون الهادىء » يرسم شولوخوف صورة لبودتيلكوف ـ لنشاطه في الدون ، وموته بيد الجلادين البيض .

و « الدون الهادىء » مترجم الى كثير من اللغات الاجنبية ، وقد نال تقديرا عالميا ضخما ، وهو ينتمي الى عداد التحف الرائعة للواقعية الاشتراكية .

واذا كان شولوخوف يتحدث في رواية « الدون الهادىء » عن المرحلة الاولى من الثورة ، وعن فترة الحرب ، وكيف تغلب قوزاق الدون على باطل الرجعية ، فانه في رواية « استصلاح الارض العذراء » يصور مرحلة التحول الاشتراكي وبناء الاشتراكية في القرية بتعميم الوسائل التعاونية .

(عن الروسية) **رضوان ابراهيم**

ظهر هذا الشهر

عن

دار العلم للملايين

بيروت

١ ـ علم النفس	للدكتور فاخر عاقل
٢ ـ النظم الاسلامية	للدكتور صبحي الصالح
٣ ـ جنة الحيوان	للدكتور طه حسين
٤ ـ انا والناس	للاستاذ حسن عبد الله القرشي
٥ ـ القانون الدولي العربي	للاستاذ محمود كامل المحامي
٦ ـ غبار الايام	للاستاذ توفيق يوسف عواد

يظهر في فبراير :

١ ـ علم السياسة	للدكتور حسن صعب
٢ ـ الوسائل التعليمية	للاستاذين بشير الكلوب وسعود الجلاد
٣ ـ رباعيات الخيام	ترجمة الاستاذ ابراهيم العريض